

دور المفسرين في الحفاظ على اللغة العربية وتطوير ملكتها:

دراسة تأصيلية في المرجعية النصية

The Role of Exegetes in Preserving the Arabic Language and Developing its Competence: An Analytical Study in Textual Reference

سعيد عرقوب *

جامعة الجزائر 1، كلية العلوم الإسلامية، مخبر مناهج البحث في العلوم الإسلامية ومقاصدها

ومسالك تقويمها (الجزائر)

s.arkoub@univ-alger.dz

تاريخ الإرسال: 2026/01/27 تاريخ القبول: 2026/02/22 تاريخ النشر: 2026/03/09

ملخص:

ارتبطت اللغة العربية بالقرآن الكريم، واحتلت به مرجعية مركزية في الإسلام، ولم تنحصر مهمتها كأداة لفهم النصوص الشرعية، بل كان لها أثر بارز في تأسيس علوم الشريعة وتطويرها، وكان لهذه العلوم دور في الحفاظ على اللغة العربية والتأصيل لمختلف علومها، وتأتي هذه الدراسة لتبرز دور علماء التفسير في صيانة اللغة العربية وإثراءها، وأهمية هذه الورقة البحثية تكمن في إبراز أثر علم التفسير في اللغة العربية، وأنها ليست مجرد أداة لفهم النصوص الشرعية فقط، بل هي ذات مرجعية مهمة فيه، وتأسست كثير من قواعده وعلومه من خلال تفسير القرآن الكريم، وتهدف هذه الدراسة لبيان تلك العلاقة التكاملية بين التفسير واللغة العربية، والكشف عن دور المفسرين في صيانة اللسان العربي والتعديد لعلومه المختلفة، وتعالج إشكالية رئيسة وهي إلى أي مدى استطاعت مدرسة التفسير تجاوز دور الحفاظ على اللسان العربي إلى دور أعمق من ذلك وهو التأسيس لمرجعية قوية للغة العربية؟ وكيف أثرت معجمها الدلالي؟ وقعدت لعلومها المختلفة.

الكلمات المفتاحية: التفسير؛ اللغة العربية؛ المعجم الدلالي؛ قواعد.

* المؤلف المرسل

Abstract:

The Arabic language is intrinsically linked to the Holy Qur'an, which has granted it a central reference in Islamic thought. Its function was not limited to being a tool for understanding texts; rather, it was a foundational pillar for the establishment and development of Sharia sciences. Conversely, these sciences played a pivotal role in preserving the Arabic tongue and grounding its linguistic branches. This study, falling under the conference's sixth axis, aims to highlight the functional role of Qur'anic exegetes (Mufasssirun) in enriching and safeguarding the Arabic language. Its significance lies in demonstrating that language is not merely a means of comprehension but a fundamental referential component through which the rules of interpretation were established.

The study seeks to clarify the complementary relationship between Exegesis (Tafsir) and linguistics, revealing the role of exegetes in codifying linguistic rules. It addresses a central problem: To what extent has the school of exegesis moved beyond "traditional preservation" of the Arabic language toward a deeper role of "referential foundation" and semantic enrichment?

Keywords: Exegesis (Tafsir), Arabic Language, Textual Reference, Semantic Lexicon, Linguistic Codification.

مقدمة:

إنّ العلاقة بين اللغة العربية والقرآن الكريم، علاقة عمقها أصالة الذكر الحكيم، وأكسبها قوة واستمراراً، وأثّرت العلوم المصاحبة للقرآن الكريم في هذه اللغة كما هي تأثرت بها، وقد جاءت هذه الدراسة لتكشف شيئاً من ذلك، فكانت بعنوان:

دور المفسرين في الحفاظ على اللغة العربية وتطوير ملكتها:

دراسة تأصيلية في المرجعية النصية

أهمية الموضوع:

- تعلقه بلغة عريقة لها مكانة متعلقة بكتاب الله تعالى.
- تعلقه بعلم التفسير وهو أجل العلوم الشرعية.
- تكمن الأهمية في إبراز أثر علم التفسير في اللغة العربية.
- في كون اللغة ليست مجرد أداة لفهم النصوص الشرعية فقط، بل هي ذات مرجعية مهمة فيه.

أهداف الموضوع:

- بيان العلاقة التكاملية بين التفسير واللغة العربية.
- الكشف عن دور المفسرين في صيانة اللسان العربي والتفعيد لعلومه المختلفة.

إشكالية البحث:

إلى أي مدى استطاعت مدرسة التفسير تجاوز دور الحفاظ على اللسان العربي إلى دور أعمق من ذلك وهو التأسيس لمرجعية قوية للغة العربية؟ وكيف أثرت معجمها الدلالي؟ المنهج المتبع: وقد اعتمد فيها عموماً على المنهج الاستقرائي والمنهج الوصفي وكذا المنهج التحليلي.

خطة البحث: هذه الدراسة قائمة على أربعة محاور تحمل في جوانبها الإجابة عن هذه الإشكالية:

- أولاً في التأصيل المنهجي لعلاقة التفسير باللغة.
- ثانياً: أثر التفسير في تثوير الحقول الدلالية.
- ثالثاً: في دور المفسرين في تقنين قواعد اللغة.
- رابعاً: كيفية الحفاظ على الملكة اللغوية في العصر الحديث انطلاقاً من علم التفسير، خاتمة تتضمن أهم النتائج والتوصيات.

أولاً: التأسيس المنهجي لعلاقة التفسير باللغة

إنَّ أبرز مقاصد القرآن الكريم هو تحقيق الهداية ⁽¹⁾ ، وهو مقصد دلّت عليه آيات كثيرة من القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: {إِنَّكَ الْكَاتِبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة:2]، فالآية الكريمة تبين أنَّ القرآن الكريم أنزل بلا ريب لإرشاد المتقين لطريق الله، وإنّما خص المتقين بالذكر لأنهم من استجاب لهذا المقصد ⁽²⁾.

ويدل على هذا المقصد أيضاً قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا} [الإسراء:9]، حيث بيّنت الآية الكريمة أنَّ القرآن الكريم عصمة للإنسان من الوقوع في طريق الضلال ⁽³⁾.

ولبلوغ هذا المقصد هناك عدة مقاربات تحققها، منها ما هو أساسي وهو الجانب الوجداني القلبي، المتعلق بالإيمان به، وهناك الجانب السلوكي وهو في الامتثال بما أمر به، وهناك جانب معرفي بتدبر معانيه والكشف عن مقاصده ودلالاته المختلفة.

وعند النظر في هذه الجوانب المختلفة سيتضح أنَّ مفتاحها يكمن في الجانب المعرفي، فله جانب محوري في بلوغ الجوانب الأخرى، وهذا له شقين أولها تلاوته، وكان من حكمة الله أن جعل تلاوة القرآن الكريم عبادة رتب عليها الأجر، وكان من أول ما نزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: {اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق:1]، وهذا الشق مفتاح لما بعده.

والشق الثاني هو البحث عن معانيه، وفهم دلالاته المختلفة، واستنباط علومه ومعارفه المتعددة والمختلفة، وكلما كان الإنسان عالماً بالقرآن الكريم كان أكثر الناس انتفاعاً به، وبلوغاً لمقصد الهداية بآتم معانيها، ولذلك ربط بين الهداية والقرآن الكريم في أكثر من موضع، إذ هو كتاب الله الذي احتوى على أعظم العلوم والمعارف، التي فيها خير الدنيا والآخرة.

(1) الزرقاني، مهال العرفان، ج 2، 144.

(2) الطبري، تفسير الطبري، ج 1، ص 230

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 15، ص 40

ولذلك كان من أكد الأمور الاشتغال بالقرآن الكريم دراسة وتدريسا، كما نبه رسول الله ﷺ على ذلك حيث قال: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»⁽¹⁾ ، وذلك أن تعلّم القرآن هو سبيل بلوغ المقصد الأعظم، وتعليمه وسيلة استمراره.

ولذلك كان أول من اشتغل بهذه المهمة، وحرص على أدائها وأسس لأصولها العلمية هو رسول الله صلى عليه وسلم ، فكان من أبرز مهماته البيان، كما دل عليه قوله تعالى: {وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [النحل:64]، وهو يشمل بيان الألفاظ والمعاني.

فمع مهمة التبليغ كان لرسول الله ﷺ مهمة أخرى وهي الكشف والإيضاح لمعاني القرآن، والكشف الذي يعنى به بيان معاني القرآن المعرفية لم يمس جميع آيات القرآن الكريم على القول الصحيح، بل فسر ما احتاج الصحابة إلى بيانه⁽³⁾ .

ومن أبرز العوامل التي قلّ فيها التفسير النبوي للقرآن الكريم مقارنة بما ورد بعد ذلك نزوله باللغة العربية، وهذا المعنى جاء تأكيده في خمسة مواضع من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [يوسف:2]، وقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا} [طه:113].

فالخطاب القرآني نزل هداية للبشر، وأول من خاطبهم الله تعالى هم العرب، فخاطبهم بما يعقلون ويفهمون معناه، وهذا يؤكده الصحابي الجليل ابن عباس رضيهما الله، حيث يخبر أن من القرآن الكريم جزء لا يفهم إلا من كلام العرب، فقال ﷺ: التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعذر أحدٌ بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى ذكره⁽⁴⁾ .

(1) صحيح البخاري، ج 6، ص 192.

(2) الطيار، التفسير اللغوي، ص 84.

(3) السيوطي، الإتقان، ج 4، ص 1960.

(4) الطبري، تفسير الطبري، ج 1، ص 75.

وهذا القسم المعتمد في فهمه إلى اللغة العربية كبير مقارنة بغيره، والمادة التفسيرية عرفت تراكما معرفيا كبيرا كلما كانت الحاجة ماسة لفهم المفردات القرآنية، والتراكيب النحوية، والظواهر البلاغية، وهي كانت معلومة لمن شهد التنزيل، وبه وقعت حجة القرآن الكريم في بلاغته.

وعلى هذا اعتمد المفسرون على اللغة العربية بمختلف علومها في فهم القرآن الكريم، وعدت أصلا من أصول التفسير، لأن القرآن الكريم نزل بهذه اللغة واعتمد أساليب العرب، وكان لهذا الأصل مستند شرعي من السنة النبوية، كما جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: لَمَّا نَزَلَتْ {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} [الأنعام: 82]، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: "لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ {لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} [الأنعام: 82] بِشَرِّكَ، أَوْلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لِابْنِهِ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ"⁽¹⁾

فالصحابة رضي الله عنهم فهموا الظلم بما هو معهود عنده، فجاء التفسير النبوي ليحدد معنى شرعي له هو المقصود في الآية، ولم ينكر عليهم طريقة فهمهم للآية بمدلوله العربي، وسار الصحابة رضي الله عنهم على هذا الأصل، كما ورد عن مجاهد رحمه الله قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنه يقول: كنت لا أدري ما "فاطر السماوات والأرض"، حتى أتاني أعرابي⁽²⁾ يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: "أنا فَطَرْتَهَا"، يقول: أنا ابتدأتها، فاحتمل علما من أهل اللغة ووظيفه في التفسير، مما يدل على سلامة أصل هذه المادة شرعا.

ولعل أشهر الأمثلة في استعمالهم لأصل اللغة في فهم القرآن الكريم، ما وقع في خلافهم في تحديد معنى (القرء)، فقد اعتمد فريق منهم على معنى معلوم عندهم في تحديده بالطهر، واعتمد آخرون على معنى نقيض له وهو الحيض، وهو لفظ مشترك في اللغة يطلق عليهما، ومعرفة كل فريق بوجه منه كان سببا في هذا الخلاف المؤثر في معنى الآية، ومن ثم تحديد حكم فقهي مهم في عدة المرأة المطلقة.

(1) صحيح البخاري، ج 4، ص 1410

(2) الطبري، تفسير الطبري، ج 11، ص 283

وقد شدد العلماء الأوائل في منع تفسير القرآن الكريم لمن لم يكن عالماً باللغة العربية، وقد ورد هذا عن مالك بن أنس رحمه الله: "ألا أوتى برجل غير عالم بلغات العرب يفسر ذلك إلا جعلته نكالا" ⁽¹⁾.

وقد تنوعت مصادر التفسير اللغوي للقرآن الكريم، لتشكّل معاني متكاملة تخدم فهم النص القرآني، فكما مست ألفاظ القرآن الكريم، بيانا ومعنى واستشهادا لصحة تلك المعاني، مست أيضا تراكيبه النحوية لتبرز معناه في السياق الذي جاءت به، وكذلك مست أساليبه البلاغية لتعلل كثير من ظواهره النحوية والصرفية، وتبرز إعجاز القرآن الكريم، وتوضح المقصود من الكلام.

فإذن جوانب اللغة في تفسير القرآن الكريم عامل مهم في تحديد المعاني، وضرورة معرفية للمفسر، وكان استمداد علم التفسير من اللغة العربية بمعرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدب لغتهم، وبدون هذا الأصل يقع الغلط وسوء الفهم ⁽²⁾.

ولعل من أبرز هذه الأمثلة ما وقع لبعضهم من سوء فهم لقوله تعالى: {وَدَا النُّوبِ إِذْ دَهَبَ مُغْضِبًا فَظَرَ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنبياء: 87]، ففسر (نقدر) بالقدرة، وحمل الآية على معنى غير مراد، وذهب لتأويله، فقال أن لن نقدر عليه العقوبة ⁽³⁾، والمعنى اللفظ حسب استعمال العرب هو التضيق، وله نظيره في القرآن الكريم في قوله تعالى: {وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَهَنِ} [الفجر: 16].

وهذا ما يقتضيه مقام النبوة من تنزيه نبي الله يونس عليه السلام من سوء الظن بالله، بل حمل الآية على التضيق هو الأليق لأن فيه حسن ظن بالله سبحانه، من أن يجعل له ملجأ ومخرجاً مما كان فيه من ضيق قومه.

(1) البيهقي، شعب الإيمان، ج 3، ص 543.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 1، ص 18.

(3) الأخفش، معاني القرآن، ج 2، ص 498.

وقد تنوعت مستويات اللغة في فهم القرآن الكريم فمنها:

- المستوى المعجمي الدلالي: المتعلق بشرح الغريب مثلاً.
- المستوى التركيبي: المتعلق بالنحو والإعراب وأثره في المعنى.
- المستوى البلاغي: من المجاز والكناية وغيرها من الأساليب.

في المقابل لا يمكن إخفاء العلاقة التفاعلية بين علم التفسير وعلم اللغة، فهذا الأخير ليس مجرد وسيلة للفهم، بل هو علم قائم بذاته، وله تاريخ نشأة وتطور تمثله مراحل مختلفة، وعلم التفسير على وجه الخصوص، والقرآن الكريم على وجه العموم أثر بشكل محوري في نشأة علم اللغة.

وكان لهما دور الدافعية لاهتمام الكثير من العلماء لرسم معالم هذا العلم، وتحديد قواعده وأصوله، لأنّ المقصد الأسى في نشأة علوم اللغة هو دفع الخطأ في نطق أو فهم ألفاظ القرآن الكريم والوقوف على معانيه⁽¹⁾.

وقد اتخذت هذه العلوم من نصوص القرآن الكريم أصلاً نقلياً للاستشهاد في كثير من مسائلها، والترجيح بين الأقوال في ضبط المعاني، والقواعد النحوية، والوجوه البلاغية، وقد انبرى لذلك في كثير من الأحيان علماء التفسير الذين انشغلوا بآيات الكتاب، وتعتبر كثير من التفاسير اللغوية مادة علمية رصينة في ضبط هذه العلوم من جهتين:

- الاستدلال من النص القرآن على مضامين هذه العلوم.
- جمع أقوال العرب زمن الاحتجاج وأقوال علماء اللغة في عصور المتقدمين، التي تعتبر مصدراً مهماً في ضبط مختلف مسائل اللغة العربية.

فإذا تقرر أنّ القرآن الكريم وتفسيره قد حفظ أصول اللغة وساهم في التععيد لها، فلا بد إذن من مساهمتها في بعض تلك الجوانب.

(1) سماعيل عبد القادر، أثر القرآن الكريم في توجيه الدرس البلاغي، ص 114.

ثانيا: أثر التفسير في تثوير الحقول الدلالية

إنّ الحقل الدلالي هو أحد مستويات التحليل اللغوي، وهو متعلق بعلم الدلالة، أو ما يسمى بعلم المعنى، وهو يتضمن البحث عن معاني الكلمات من عدة جوانب، منها:

- مصادر هذه المعاني.
- اختلافها في لغة ما باختلاف عصورها والأمم الناطقة بها.
- النتائج اللغوية التي تترتب على كل منها، وهو ما يسمى بعلم "المفردات".

وهذا الجانب المعروف بالدلالة هو ما يتوصل به إلى معرفة المعنى⁽¹⁾، وهو أمر ضروري في فهم معاني القرآن الكريم خصوصا، ومقصود العرب من مفرداتهم.

وهنا ستظهر أهمية القرآن الكريم ومعرفة معانيه كمادة علمية تأسيسية لهذا العلم، وكيف ثوّر تلك المعاني وهذبها، وحملها معاني إضافية اعتبرت مصطلحات لغوية أساسية، وجمع بين لغات العرب مما أضاف نطاقا واسعا للاستعمال العربي لتلك الكلمات، وأضاء على مصادر أخرى أصلية للغة كالشعر العربي ونثره، مما استخدمه المفسرون الأوائل كشواهد لصحة كثير من المعاني، فكان في ذلك صيانة للسان العربي وحفظ لتراثه وإثراء لمعناه.

ونشأة هذا العلم كانت له دوافع أساسية، أبرزها دفع الخطأ في نطق أو فهم الفاظ القرآن الكريم، وأيضا للوقوف على معانيه⁽²⁾، فإذا الهدف الأسى من الاهتمام به التوصل لفهم القرآن الكريم وصيانتة، ومن ثم صيانة اللسان العربي عن اللحن، وحفظ تراثه.

وقد انطلقت بوادر نشأة هذا العلم منذ عهد الصحابة رضي الله عنهم، فقد نقل عن ابن عباس رضي الله عنه قوله: «إِذَا خَفَى عَلَيْكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ فَابْتَغُوهُ فِي الشِّعْرِ فَإِنَّهُ دِيْوَانُ الْعَرَبِ»⁽³⁾، وهذا العامل مؤثر في الاهتمام بالألفاظ العربية، والبحث عن معانيها وذكر أهم أصولها ومصادرها.

(1) الراغب، المفردات، ج 1، ص 316.

(2) سماعيل عبد القادر، أثر القرآن الكريم في توجيه الدرس البلاغي، ص 114.

(3) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، ج 10، ص 3366.

وعلماء التفسير الأوائل اهتموا بالمستوى الدلالي المعجمي اهتماما بالغا، وألفوا كتباً خاصة بجمع مفردات القرآن الكريم لغرض بيان معانيها، وقد عرف التأليف لديهم مسلكين أساسيين:

الأول: التفسير اللفظي، وهذا ببيان معاني اللفظة، إما مباشرة دون استدلال، أو بالاستدلال بالشعر أو النثر، وهذا ما عرف بعلم الغريب.

الثاني: البحث عن المعاني المختلفة للفظ القرآنية في المواضع القرآنية المتعددة للوجه الواحد الذي اتفق فيها معنى اللفظ، وهو ما عرف بالوجوه والنظائر، أو الأشباه والنظائر.⁽¹⁾

ولكل مسلك جملة من التأليف التي ساهمت في جمع كثير من المادة اللغوية المعجمية للغة العربية، ففي غريب القرآن الكريم يرجع التأليف إلى فترة متقدمة جداً، حيث يذكر مؤلف لعطاء بن أبي رباح (ت 114هـ)، وهو مخطوط في مكتبة عاطف أفندي بتركيا، ويرجح بعض الباحثين أنه منقول عن ابن عباس رضي الله عنه⁽²⁾، واستمر التأليف فيه إلى القرن الحالي.

ولم تقتصر المادة العلمية لدلالة الألفاظ في باب الغريب على المصنفات المستقلة، بل من كتب التفسير من أفردت فصولاً تحتوي على بيان لمعاني الكلمات العربية في سياقها القرآني، ويذكر في هذا السياق الإمام ابن جزي الغرناطي رحمه الله (ت 741هـ)، في مقدمة تفسيره أفرد جزءاً في ضبط أهم مفردات القرآن التي يكثر استعمالها ومعانيها، ورتبها حسب ترتيب المعجم في الغالب، وقد احتوت على قرابة خمسمائة كلمة، ومن ميزات هذه المقدمة في علم الغريب جمع المعاني المختلفة للكلمة الواحدة⁽³⁾.

والمسلك الثاني المتعلق بالوجوه والنظائر كان التأليف فيه متقدماً أيضاً، واعتبر إضافة لهذا المجال، لما يحمله من ربط الأصل الجامع لمعنى اللفظ في لغة العرب بأصله النقلي السماعي، والتعرف على الدلالات اللغوية المباشرة حسب استعمالها المتعددة⁽⁴⁾.

(1) مساعد الطيار، التفسير اللغوي، ص 94.

(2) إبراهيم حسين، ص 59.

(3) الزبيري علي محمد، تفسير ابن جزي ومنهجه في التفسير، ج 1، ص 629.

(4) مساعد الطيار، التفسير اللغوي، ص 96.

ولعل أقدم ما كتب في هذا الفن يرجع لمقاتل بن سليمان رحمه الله (ت 150هـ)⁽¹⁾ ، ويختص هذا النوع من التأليف بميزتين: أولهما النظر في مدلول اللفظ من خلال سياقه الذي ورد فيه، وهذا يكسب النتيجة دقة، ويساهم في تثوير المعاني، والميزة الثانية ربط النتيجة بأصلها اللغوي النقلي الصحيح.

وقد عرف طرقا مختلفة في التأليف أبرزها الترتيب المعجمي للألفاظ، وهناك طريقة تعتبر أفضل وهي الترتيب حسب الآيات القرآنية، وهذا يظهر اللفظ في سياقه فيتضح المعنى بشكل مباشر⁽²⁾.

إنَّ إسهامات المفسرين عموما في البحث الدلالي تعتبر ذات قيمة علمية عالية، ومادة أساسية في البحث، ولم تقتصر فقط على الكشف والإيضاح، والتأسيس لأصالة اللفظ فقط، بل قدمت إضافات جديدة على بعض المعاني التي أعطت لها بعدا شرعيا كالصلاة والزكاة والصوم ونحوه⁽³⁾، فضلا عن جمعها للغات العربية وحمايتها من الاندثار⁽⁴⁾.

ويظهر دور علم التفسير في المعجم الدلالي أيضا في إظهاره لأثر متعلق بالجدور اللغوية، حيث بيّن كيف أحدث القرآن الكريم جذورا لغوية لا عهد للعربية بها – وإن كان هذا قليلا – ومثاله ما ذكره ابن فارس رحمه الله (ت 395هـ)، في مادتي (ن. ف. ث.) و (ق. د. س.).

وعليه يمكن القول أنّ مادة علم التفسير وهي القرآن الكريم اتسمت بصفات جعلتها محورية في بناء الحقل الدلالي للغة العربية، والتي من بينها:

- جزالة الألفاظ وإثراء المعاني.
- تهذيب الألفاظ من صبغتها الجاهلية إلى صبغة راقية.
- قدسية القرآن الكريم جعل الاهتمام بهذا الميدان مهما لصيانتها من التحريف.

(1) السيوطي، الإتقان، ج2، ص84.

(2) بودوكارة مراد، الأشباه والنظائر وأثر السياق في توجيهها الدلالي، ص17.

(3) جرادى نبيل، الأثر الدلالي للقرآن الكريم على اللغة العربية من خلال معجم مقاييس اللغة، ص63.

(4) سماعيل عبد القادر، أثر القرآن الكريم في توجيه الدرس البلاغي، ص141.

- حفظ الله تعالى للقرآن الكريم، ويتضمن معه حفظ معاني ألفاظه، واستمرار اللغة العربية.
 - الجدة في تحديد معاني الألفاظ العربية.
 - عالمية رسالة الإسلام ومن ثم التمهيد لعالمية اللغة العربية.
 - توحيد القرآن الكريم للهجات العربية، من ثم توسيع الحقل الدلالي.
- كل هذه المميزات ساهم التفسير في إثراءها، سواء من الكتب المفردة في المجال أو كتب التفسير العامة القديمة والحديثة الزاخرة بذلك.

ثالثاً: دور المفسرين في تقنين قواعد اللغة:

قد سبق بيان أهمية الكشف عن معنى المفردة العربية، ودور التفسير في بيان دلالتها اللغوية، لكن هناك جانب لغوي محوري متكامل معه، وهو التركيب والنظر في وظيفة الكلمة ضمن سياقها، وهذا ما اعتنى به علم النحو في المقام الأول.

فمن فوائد معرفة تلك القواعد انكشاف بعض المعاني، وترجيح أحد الاحتمالات الواردة⁽¹⁾، ولذلك عدّ العلماء معرفة هذه القواعد ضرورة تفسيرية، ولذلك كان المفسرون مهتمين بهذا الجانب وأثروا في التقعيد له.

وقد أثر القرآن الكريم في قواعد النحو تقعيدياً وتوجيهياً⁽²⁾ وتعددت وجوه التأثير القرآني لتلك العلوم النحوية⁽³⁾.

ويمكن القول أنّ هناك إجماعاً في أنّ سبب وضع النحو هو فشو اللحن بفساد الألسنة واختلافها⁽⁴⁾، فجاء هذا العلم لحفظ ولصون القرآن الكريم من التحريف⁽⁵⁾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص18.

(2) سماعيل عبد القادر، أثر القرآن الكريم في توجيه الدرس البلاغي، ص246.

(3) واسيني بن عبد الله، وجوه تأثير القرآن الكريم على اللغة العربية وعلومها، ص72.

(4) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج، ص2738.

(5) رفيدة إبراهيم عبد الله، النحو وكتب التفسير، ص33.

(1) وقد عد العلماء المعرفة بالقرآن الكريم من الضروريات لعالم النحو واللغة عموماً ، ولذلك لا يعتبر القرآن الكريم مجرد شاهد لصحة القاعدة النحوية، بل هو الأصل الأول من أصول النحو.

ولما كان تاريخ هذا العلم مرتبطاً بالقرآن الكريم، كان للتفسير أثر بارز في ظهوره وتطوره، وإنَّ التأليف في علم النحو والتأصيل لقواعده في الأساس كان لغرض التفسير، وبيان معاني القرآن الكريم والوظيفة النحوية للمفردة القرآنية وتراكيب الجمل.

ومن أوائل المؤلفات المقعدة لعلم النحو ما وضعه اللغويين كمشاركة في علم التفسير، ومن أبرزهم الكسائي (ت184هـ)، والفراء (ت207هـ) ومحمد المستنير قطرب (ت206هـ) (2)، وهؤلاء يمثلون أئمة هذا الشأن وأعمدة التنظير له، وعنايتهم بكتاب الله كان له شق متعلق بالتفسير.

وقد ظهر في مشاركة اللغويين في التفسير نوعان من المؤلفات، سميت ب: «معاني القرآن» و«إعراب القرآن»، كما ظهر اتجاه النحويين في اختصاص القرآن الكريم بالبحث النحوي من خلال هذه الكتب، وأولها معاني القرآن لمدة أربعة قرون، بداية بما ألفه واصل بن عطاء (ت131هـ) إلى ما كتبه أبو القاسم محمود بن أبي الحسن الغزوني (ت553هـ) (3).

وهذه الكتب لا تخرج عن الدراسات القرآنية لما تشمله من إعراب القرآن الكريم، والتعرض للقراءات والاحتجاج لها لغوياً، مع بيان غريب الكلمات وسبيل المعاني (4).

واستقلت مؤلفات (إعراب القرآن) عن المعاني مبكراً، وعرفت مراحل متطورة ومؤثرة في علم النحو المستمد من المادة التفسيرية، التي بدأت في القرنين الثاني والثالث، والتي كونت قاعدة نحوية مهمة، ثم بدأت تعرف أصالة في التفكير النحوي أبرز روادها ابن جرير الطبري رحمه الله (ت310هـ) والنقاش رحمه الله (ت351هـ) والزمخشري (ت538هـ) والرماني (ت384هـ).

(1) ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص48.

(2) الطيار مساعد، التفسير اللغوي، ص57.

(3) رفيده إبراهيم، النحو وكتب التفسير، ص111.

(4) سماعيل عبد القادر، أثر القرآن الكريم في توجيه الدرس البلاغي، ص97.

ثم تطورت إلى مرحلة أبرزت أئمة كبار عرفوا بالموسوعية وجمعوا بين النحو والتفسير كابن عطية رحمه الله (ت 546هـ) والرازي (ت 606هـ)، وأئمة انتهجوا منهج النقد والترجيح والاحتجاج للغوي للقراءات مثل أبي حيان الأندلسي رحمه الله (ت 745هـ).

وتواصلت تلك المراحل إلى يومنا هذا مروراً بمرحلة الجمع والحواشي إلى مرحلة التحقيق التي يمكن أن يقال إن أبرز روادها محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله (ت 1393هـ). وبين دور اللغويين المشاركين في التفسير، والمفسرين المهتمين بالتأصيل النحوي والتعديد له، نلاحظ تكاملاً معرفياً أهم معالمه:

- تغليب القواعد النحوية وبلورتها والحكم عليها، مع دعمها بالشواهد القرآنية: من ذلك مثلاً:
 - قاعدة في أن "ال" قد تأتي لتقع نائبة عن الضمير، كما ذهب إلى ذلك الطبري رحمه الله (ت 315هـ)، في قوله تعالى: {فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: 41].
 - قاعدة "إذا" تدخل على الفعل الماضي والمضارع ولا تدخل على الأسماء إلا بتقدير فعل محذوف، وهذا اختيار الرمخشري رحمه الله (ت 543هـ)، كما في تفسيره لقوله تعالى: {إِذَا السَّمَاسُ كُورَتْ} [التكوير: 1]، حيث قال: «لأنَّ «إذا» يطلب الفعل لما فيه من معنى الشرط»⁽¹⁾.
- إظهار الشواهد المتعلقة باختلاف القراءات القرآنية، لإثبات الأوجه المختلفة والصحيحة إعرابياً؛ وأشهر أمثلته ما ورد في قوله تعالى: { إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي } [طه: 14]، حيث أثبت الطبري رحمه الله القراءة المتواترة بتشديد النون وهي موافقة للغة من لغات العرب، وهي تؤسس لقاعدة من قواعد النحو الصحيحة⁽²⁾، ووافقه أبو حيان الأندلسي رحمه الله (ت 745هـ) واستدل لذلك بمن تكلم بهذه اللغة من القبائل العربية⁽³⁾.

(1) الرمخشري، الكشف، ص 707.

(2) الطبري، تفسير الطبري، ج 18، ص 221.

(3) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ص 741.

■ فض النزاع النحوي بين المدارس النحوية: ومثاله ترجيح ابن عطية الأندلسي (ت.

542هـ) لقول البصريين أنه لا يجوز أن يعطف ظاهر على مضمر مخفوض⁽¹⁾، وهذا في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: 1]،

(2)

في حين يصحح القرطبي جوازه بتقدير باء محذوفة قبل الأرحام وله شواهد.

■ الاهتمام بالسياق القرآني في التقعيد: وهنا تظهر "سلطة التفسير" في تقنين القاعدة

النحوية، ومثاله: أداة (أين) حيث قد تكون دالة على الشرط بدلا من دلالتها المعتادة

خارج السياق، فتكون شرطية للمكان لتضمنها معنى الشرط، كما في قوله تعالى: {وَضَرَبَ

اللَّهُ مَثَلًا لِّتَجْلِيَنَ أَعْدَهُمَا بِأَكْمُرٍ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ

بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾} [النحل: 76].

وغير ذلك من الوجوه التي يمكن القول من خلالها أن نشأة هذا العلم وإعماله في

التفسير هو بداية التفسير بالرأي، وكان لها دور الحماية للغات العرب التي نزل بها القرآن

الكريم.

رابعا: كيفية الحفاظ على الملكة اللغوية في العصر الحديث انطلاقا من علم التفسير

يعتبر تطوير الملكة اللغوية من حيث مفردات اللغة العربية من أبرز مقومات القوة

اللغوية للمتحدث بها، وتعتبر كتب التفسير (مستودعاً دلالياً) يتجاوز المعاجم الجامدة،

وتطوير الملكة من خلالها يتم عبر الانتقال من "التعريف" إلى "السياق"، فعلم التفسير يعلم

الباحث كيف يكتسب الملكة عبر فهم الكلمة داخل الجملة، لا مجرد معناها القاموسي

المعزول.

ويمكن الاستفادة من جهود المفسرين في هذا الجانب في العصر الحديث ب:

■ تحديد جذور المفردات العربية في القرآن الكريم.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز، ج 2، ص 5.

(2) القرطبي، جامع أحكام القرآن، ج 5، ص 2.

- ربط الجذور بشواهدا من القرآن الكريم على شكل قواعد.
- بث النتائج وترتيبها حسب الترتيب المصحفي عبر أجزاء القرآن الكريم.
- مراعاة مستوى المتعلمين في تثبيت هذه المعلومات.
- التركيز على الوجوه والنظائر، والقيام بتطبيقات للتدرب على استخراجها من خلال الآيات المتفقة في وجه واحد ثم الذي يليه.
- العمل على معرفة الفروق الفردية بين الألفاظ القريبة المعنى مع شواهدا.

أما عن تطوير الملكة اللغوية من خلال "قواعد النحو" في كتب التفسير، فيبدأ أولاً بتحويل النحو من الإعراب الجاف إلى النحو الوظيفي، بجعله مادة تعليمية تربط بين الإعراب ومقصده الأصلي في توضيح المعنى، والتدريب على توجيه القواعد من خلال كتب التفسير.

كما يجب توظيف الآيات القرآنية كشواهد نحوية في التعليم، وربطها بأقوال المفسرين اللغوين بشكل بسيط يراعى به مستوى المتعلمين.

خاتمة:

أولاً: أهم نتائج البحث

بناء على ما سبق يمكن أن نخلص بالنتائج الآتية:

- 1- إنَّ علم التفسير ليس مجرد أداء للفهم وحسب، بل كان له مرجعية مهمة في وضع أصول اللغة وقواعدها
- 2- لقد كان لجهود المفسرين دور بارز في إثوير الحقول الدلالية، انطلاقاً من النص القرآني وما يحمله من مفردات، وسياقات ورودها فيه.
- 3- لقد عمل التفسير من خلال بيانه لمعاني القرآن الكريم في نقل الألفاظ العربية من سياق معجمي ضيق إلى أفق دلالي واسع، مما ساهم في نشأة مصطلحات عربية جديدة.
- 4- لم يقتصر عمل المفسرين على الاستدلال والاحتجاج بل كان لهم دور في التقنين لقواعد النحو.
- 5- عملت كتب التفسير كمختبرات بحثية وساهمت في تطوير البحث في اللغة العربية.
- 6- ربط علماء التفسير بين مختلف علوم اللغة لبيان تكاملها.

7- كان لعمل المفسرين صيانة للهوية العربية واللسان العربي.

ثانياً: التوصيات المقترحة

- 1- تجديد المناهج التعليمية: بتحويل مادة "التفسير" في المؤسسات الجامعية والتربوية من مادة مشحونة بالعلوم، إلى "مادة لسانية تعليمية" تستهدف بناء الملكة اللغوية لدى المتعلم عبر النص القرآني، لكن بالتجزئة والتفصيل حسب محاور اللغة.
 - 2- اعتماد التفسير الوظيفي: التركيز في تدريس قواعد اللغة العربية (النحو والصرف) انطلاقاً من "شواهد التفسير"، لربط القاعدة بالمعنى والمقصد، وتجنب الإغراق في الإعراب الجاف.
 - 3- إنشاء معاجم دلالية رقمية: باستثمار مفردات القرآن وجهود المفسرين في الكشف عنها ببناء معاجم إلكترونية ذكية تربط الجذور اللغوية بسياقاتها القرآنية المختلفة (الوجوه والنظائر).
- وختاماً إنّ هذه اللغة من مقومات هذه الأمة الإسلامية، والعمل على تطويرها بحثاً وتدرّيساً بناءً لهوية هذه الأمة، واستمراراً لها.

قائمة المصادر والمراجع

1- الكتب :

- ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد (ت 328هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: أسعد محمد الطيب. المملكة العربية السعودية: مكتبة نزار مصطفى الباز، د. ت.
- ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد (ت 627هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محي الدين الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، (1999)
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم (728هـ)، مقدمة في أصول التفسير، بيروت: دار مكتبة الحياة، (1980)
- ابن عاشور، محمد الطاهر (1293ت)، تفسير التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، (1984).
- ابن عطية، عبد الحق بن غالب الأندلسي (ت 541هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام شافعي، بيروت: دار الكتب العلمية (2022).
- الأخفش الأوسط، سعيد بن مسعدة (ت 215هـ)، معاني القرآن، تحقيق: هدى محمود قراعة، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1990
- أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف (745هـ)، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صديقي محمد جميل. بيروت: دار الفكر البخاري، محمد بن إسماعيل (ت 256هـ)، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير الناصر. دار طوق النجاة (2001).
- البيهقي، أحمد بن الحسين (ت 458هـ)، شعب الإيمان، تحقيق: عبد العلي حامد. الرياض: مكتبة الرشد (2002).
- الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت 628هـ)، معجم الأدياء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب). تحقيق: إحسان عباس. بيروت: دار الغرب الإسلامي (1993).
- الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد (ت 502هـ)، المفردات في غريب القرآن. تحقيق: صفوان عدنان داوودي. دمشق: دار القلم (1991).
- رفيدة إبراهيم عبد الله، النحو وكتب التفسير، ليبيا، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، (1990).
- الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي (1943).
- الزمخشري، محمود بن عمر (ت 528هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، بيروت: دار الكتاب العربي (1407هـ).
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، (1974).
- الطبري، محمد بن جرير (ت 310هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر. بيروت: مؤسسة الرسالة. (2000)
- الطيبار، مساعد بن سليمان، التفسير اللغوي، الرياض: دار المحدث (2022).
- القرطبي، محمد بن أحمد (ت 671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. القاهرة: دار الكتب المصرية (1964)
- المجلات:
- بودوكرة، مراد، الأشباه والنظائر وأثر السياق في توجيهها الدلالي، الجزائر: مجلة الرواق، العدد 2، (2024).
- جرادي، نبيل، الأثر الدلالي للقرآن الكريم على اللغة العربية من خلال معجم مقاييس اللغة، مجلة الشهاب، العدد 3، (2024)
- الطروحات:
- الزبيري، علي محمد، تفسير ابن جزي ومنهجه في التفسير (رسالة دكتوراه)، جامعة إمام محمد بن سعود الإسلامية (1987).
- سماعيل، عبد القادر، أثر القرآن الكريم في توجيه الدرس البلاغي، مقاربات تطبيقية في المستوى الدلالي (رسالة دكتوراه)، الجزائر: دار الهدى، (2024).